الفصل الثالث

مثالية شلنج

- تمهيد
- حياته وأعماله
- شلنج وفلسفة فشته
- فلسفة الطبيعة
- المثالية الموضوعية

تمهـيد

كانت روح العصر فى حياة "شلنج" هى روح التوحيد الكلى الذى تمثل: فى سياسة الثورة الفرنسية الداعية إلى المساواة بين جميع الناس فى كل أرجاء الدنيا، وفى النزعة القيصرية التى تجسدها "نابليون"، فحاول أن يضم أوروبا تحت لواء واحد ومن بعدها العالم بأسره. وتمثلت النزعة إلى التوحيد الكلى فى الفن والشعر والعلم والفلسفة: فى الفلسفة يرد المعرفة كلها إلى مبدأ واحد على أساسه يبنى بناء الفلسفة، وهو ما فعله "فشته" فى هذا العلم حيث رد العلم كله إلى مبدأ واحد هو "الأنا المطلق". وفى الشعر يجعل الشعر ذا نزعة كلية لأنه هو تفسير الطبيعة الكلية والتاريخ والإنسان. ولن يتم تكوين الشاعر إلا إذا أحاط بكل الشعر فى مختلف العصور والبلدان، ولهذا نجد دعوة إلى الإحاطة بالشعر العالمى؛ فراح "أوجست اشليجل" يترجم شكسبير، و"تيك" يُترجم دون كيشوت و" جريس " يترجم توركوانوتو. وفى الدين اتجه بعضهم إلى الكنيسة الكاثوليكية لأنها هى الكنيسة التى تمثل النزعة الجامعة الشاملة الكلية [1].

ولقد وجد "شلنج" فى مذهب "اسبينوزا" النموذج الأعلى للتفكير الفلسفى، ذلك لأن مذهبه توحيد شامل يقوم على أساس مبدأ وحيد هو "الجوهر". وحاول "شلنج" أن يفهم "فشته" على أساس أنه تجسد لنزعة "اسبينوزا" حيث رأى تشابهاً بين المذهبين، حتى إنه فى بحث بعنوان: "الأنا بوصفه مبدأ الفلسفة" يعلن عن رغبته فى تشييد مذهب يكون بمثابة تكملة لكتاب "الأخلاق" لـ "اسبينوزا" ولهذا يستعير منه الصفات التى يخلعها على المطلق مثل: الهوية المحض، والوحدة، واللاتناهي، والقدرة المطلقة، والحرية، وكلية الوجود.

و"شلنج" يرى فى "اسبينوزا" أول من تجاوز التعارض بين الطبيعة وبين العقل

أو (الروح)؛ قال:

« إن " اسبينوزا " كان أول من أدرك بشعور تام وحدة الروح والمادة، من حيث أن الامتداد والفكر ليسا غير تحولات لنفس المبدأ. وكان مذهبه أول تخطيط جرئ صدر من خيال مبدع أدرك المتناهى على أنه متضمن مباشرة فى الفكرة اللامتناهية الخالصة » [2].

ومن هنا رأى "شلنج" أن كل فلسفة سابقة كانت فلسفة سلبية، ولا يرى بذوراً وإرهاصات للفلسفة الإيجابية إلا عند "أفلاطون" والأفلاطونية المحدثة و"الغنوصية" ولدى "اسبينوزا".

والفلسفة الإيجابية عند "شلنج" تنطوى على عدة أمور:

إرادة الخروج من الذاتية إلى الموضوعية، وذلك ما قام به ضد "فشته" بأن أنشأ أولاً فلسفة الطبيعة ثم فلسفة الفن حتى وصل إلى فلسفة الأساطير والوحي ثم فلسفة التاريخ؛ وإرادة الحرية، وتوكيد الوعى المسيحى، وإرادة إيجاد دين جديد حق - دين فلسفى.

* * * *

حياتـه وأعـمالـه

ولد "شلنج" فى "ليونبرج" Leonberg بجنوب غربى ألمانيا فى 27 يناير عام 1775. وكان أبوه ذا علم باللاهوت "العهد القديم" من الكتاب المقدس، ويعرف بعض اللغات الشرقية وآدابها، وله كتابات فى اللاهوت والوعظ، وأمه هى الأخرى تنتمى إلى أسرة قسيسين. وكان لهذه الوراثة اللاهوتية أثرها الفعال فى "شلنج"، ألحقه الأب بمعهد "ديرانى" لإعداد الطلاب للالتحاق بجامعة "توبتجن" Tubingen لدراسة اللاهوت. وظهر نبوغه المبكر فى الدراسة. وفى 1790 التحق بالجامعة ومضى فيها خمس سنوات من 1790 إلى 1795. القسم الأول منها فى دراسة الفلسفة، والقسم الثانى أو الأخير فى دراسة اللاهوت. ولقد تعرف فى الجامعة على شخصيتين (لهما مستقبل عظيم فى الأدب والفلسفة فى ألمانيا) هما "هيلدرلن" الشاعر و"هيجل" الفيلسوف [3].

وحين جاء "شلنج" إلى "توبنجن" كان علمه بالفلسفة مقصوراً على مذهب "ليبنتز"، ولم يعرف بعد شيئاً عن مذهب "كانط". وقرأ أول ما قرأ فى الفلسفة، شروح "رينهولد" لـ "نقد العقل الخالص "لـ "كانط"، وقرب انتهاء مقامه فى "توبنجن " بدأ بقراءة مؤلفات "فشته" الأولى، وأعجب بنظرية العلم عنده، ورأى فيها أول تقدم حقيقى فى التفكير النقدى الذى بدأه "كانط". وفى الوقت نفسه كان يتابع دراساته اللاهوتية باهتمام بالغ، وأدرك ضرورة النقد التاريخى فى الدراسات المتعلقة بالكتاب المقدس.

وفى عام 1792 حصل على درجة الأستاذية فى الفلسفة وفى عام 1795 حصل على الدرجة نفسها فى اللاهوت، وكانت رسالته فى الفلسفة تتعلق بموضوع مستمد من الكتاب المقدس، وهو "بحث نقدى فلسفى فى شرح أقدم الأقوال "الواردة فى الإصحاح الثالث من سفر "التكوين".

وبدأ يتطلع إلى منصب أكاديمى، وسنحت له الفرصة بأن عين فى جامعة "بينا" (حيث كانت مركز الفلسفة فى ألمانيا كلها) فارتحل إليها "شلنج" عام 1798، واستطاع أن يضع أساس مذهبه الفلسفى من خلال محاضراته فى جامعة "بينا" [4].

ومكث فى جامعة "بينا" أربع سنوات نشر خلالها الكتب التالية: "فى النفس العالمية" عام 1798، وبداية مذهبه فى "فلسفة الطبيعة" و"فكرة العلم الطبيعى النظرى" عام 1799. و"مذهب التصورية الذاتية" عام 1800. و"برونو أو فى المبدأ الإلهى والطبيعى للأشياء" عام 1802 ثم فى مرحلة أخرى فصل آراءه فى الفلسفة الطبيعية متأثراً بـ"اسبينوزا" و"الأفلاطونية المحدثة وعصر النهضة" [5].

ثم انتقل " شلنج " بين عامى (1803 - 1841) بين جامعات "أيرلنجن" و"ميونخ" و"برلين" وهو يحاضر ويكتب فى فلسفة الدين، فنشر عام 1804 "الفلسفة والدين" و"بحوث فلسفية فى ماهية الحرية الإنسانية" عام 1809 وبعد وفاته عام 1854 نشر له "فلسفة الأساطير" و"فلسفة الوحى".

* * * *

شلنج وفلسفة فشته

بدأ إعجاب "شلنج" بـ "فشته" (بوصفه التكملة الصحيحة لمذهب "كانط") بعد دراسته لـ "نقد العقل الخالص" لـ "كانط" عام 1791. وبعد ثلاث سنوات وجد فى "فشته" خير من يواصل ويتم مذهب "كانط". وفى عام 1797 أنشأ فلسفة الطبيعة داخل مذهب العلم عند "فشته"، وتعد هذه أول مرحلة فى تطوره الفلسفى.

ماذا رأى "شلنج" فى فلسفة "كانط" من نقص؟ ووجدها تنقض وحدة المبدأ الذى من شأنه أن يعطى هذه الفلسفة وحدتها، وهذا النقص هو الذى تلافاه "فشته" بمذهب العلم حين جعل هذا المبدأ هو "الأنا المطلق". ومن هنا كانت نقطة البدء عنده هى بعينها نقطة البدء عند "فشته" وهى كيف نقضى على الثنائية التى أفضى إليها "كانط" بين عالم الظواهر وعالم الأشياء فى ذاتها [6].

إن الفلسفة وكذلك العلم - فى نظر "فشته" و"شلنج" - لا يمكن أن يقوما إلا إذا وجد مبدأ للتوحيد، أى مبدأ يوحد بين المعارف كلها بحيث تترابط فيما بينها ارتباطاً دقيقاً ضرورياً يستمد ضروريته من هذا المبدأ الواحد، هذا المبدأ الأساسى الذى يستمد منه كل علم وجوده.

لكن "فشته" انتهى إلى أن كل شيء من "الأنا" وإلى "الأنا" ينتسب ولا شيء خارج "الأنا"، وما نسميه حقيقة خارجية وموضوعات خارجية لا يوجد فى ذاته بهذا الوصف، بل يوجد بوصفه لحظة من لحظات الأنا، فالموضوع ما هو إلا "الأنا" حين يضع نفسه فى مقابل "اللا - أنا"، فهو يفصل فى نشاطه شيئاً يسميه الموضوع ويحاول أن ينتصر عليه. وواضح أن العالم الخارجى بالمعنى المألوف قد اختفى وزال وأصبح الإنسان أمام عالم كله ذات خالصة ولا عمل فيه لأى موضوع فكل شيء يندرج فى داخل هذا الأنا الخالص المطلق. وعلى هذا فالطبيعة ليس لها وجود حقيقى عند "فشته" [7].

أما عند "شلنج"فالطبيعة على العكس لها من الوجود الواقعى ما لـ "الأنا" والعقل من وجود، ولهذا فإن الطبيعة عنده توجد مستقلة عن الموضوعات الإنسانية. وعلى الرغم من أن هذه الطبيعة فيها جانب روحى أساسى تقوم عليه، فإن هذا لا يمنع من استقلالها بنفسها. فهو يرى أن الوعى فى مروره من خلال الكثرة يصبح طبيعة، ومن خلال الطبيعة يستيقظ ليصبح روحاً إنسانياً. إذن فمبدأ الأشياء ليس هو "الأنا" كما هى الحال عند "فشته" بل الهوية بين الطبيعة والروح المطلق الذى هو الطبيعة والروح معاً.

وهذا الروح المطلق يظهر أولاً على هيئة الطبيعة، ومن هنا نجد "شلنج" يتجه اتجاهاً واقعياً ومثالياً معاً، فهو واقعى لأنه يعترف بوجود الطبيعة، وهو مثالى لأنه يجعلها شيئاً مثالياً بمعنى أنها شيء خارج العقل البشرى. وكانت هذه النزعة إلى الطبيعة الواقعية بمثابة اتجاه جديد ظهر فى الفلسفة الألمانية فى السنوات العشر الأخيرة من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر. فبدأ النزعة الطبيعية تحتل مكانتها فى مقابل مثالية "كانط" و"فشته" التى حاولت إمزاج الطبيعة فى الروح وإعطاء العقل مكان الصدارة [8].

* * * *

فلسفة الطبيعة

تصور لنا فلسفة الطبيعة عند "شلنج" العالم العقلى فيما نراه فى عالم الظواهر الطبيعية من أشكال وقوانين، إذن فموضوع تلك الفلسفة الطبيعية هو أن تستمد صورة العقل من الطبيعة. والطبيعة فى فاعلية دائمة ونشاط متواصل، وكل ما ترمى إليه هو "الحياة" ولكنها تسعى إلى الحياة الكاملة، ولذا نجد العقل المثبوت فى ظواهر الطبيعة يجاهد لكى يصعد من صورة ماهية دنيا إلى صورة أعلى حتى تبلغ مرتبة الكائن العضوى الذى يتمكن فيها من الإدراك. ومن هنا يقسم "شلنج" فلسفته فى الطبيعة إلى أجزاء ثلاثة:

1- الطبيعة العضوية.

2- الطبيعة اللاعضوية.

3- التبادل بين الطبيعتين [9].

والطبيعة العضوية فاعلية لا نهائية، وهى عبارة عن قابلية للإنتاج لا تنتهي، ونتيجة لهذه الفاعلية تكون مخلوقات نهائية هم الأفراد.

أما الطبيعة اللاعضوية تقوم على معارضة الطبيعة العضوية ومقاومتها، وهذه الطبيعة كتلة من المادة يُمسك بعضها إلى بعض عوامل خارجية.

ولكن لما كانت الطبيعة العضوية والطبيعة اللاعضوية لا يمكن لإحداهما أن توجد مستقلة عن الأخرى، فهما متصلتان تؤثر الواحدة فى الأخرى. ذلك لأن كلتاهما قد صارت عن أصل واحد مشترك، هو مبدأ الحياة.

إن مبدأ وحدة الطبيعة يقتضى رفع التقابل بين المتقابلات الظاهرة فى الطبيعة واستخلاص الطبيعة العضوية واللاعضوية لكلتيهما من مبدأ واحد هو قوة الحياة - كما ذكرنا تواً - ولها يقول "شلنج" فى مقدمة كتابه "نفس العالم":

« حينما يرتفع نظرنا إلى فكرة الطبيعة بوصفها كلاً، يختفى التقابل بين العضوية واللاعضوية، ذلك التقابل الذى أخر تقدم علم الطبيعة زمناً طويلاً ... وإن مبدءاً واحداً بعينه هو الذى يربط بين الطبيعة العضوية والطبيعة اللاعضوية » [10].

وهكذا نرى، بكل وضوح، أن "شلنج" كل أول من قرر أن الطبيعة تؤلف وحدة واحدة فى تطور مستمر، وأن العضوى مستنبط من اللاعضوى وبهذا نظر إلى علم الطبيعة كله بنظرة واحدة، وقرر أنه يستند إلى مبدأ واحد .

* * * *

المثالية والموضوعية

يقول "شلنج":

" **إن العقل المطلق هو عبارة عن اندماج الذات والموضوع** ".

والمطلق هو الذى يشطر نفسه شطرين: عالم الواقع الخارجى، وعالم المثال العقلى. والعقل هو النقطة التى يتلاقى عندها الجانبان ويندمجان. وعلى الرغم من أن "الذات والموضوع" كليهما موجودان فى العقل الأسمى، إلا أن هذا العقل الأسمى نفسه، فى الوقت ذاته، يجرد نفسه منهما، ذلك لأن الذات والموضوع موجودان فى كل شيء، والفرق هو ترجيح جانب الذات فيه أو الجانب المادى الطبيعى منه، هذا التقابل الذى نجده بين الواقعى والمثالى (الذات والموضوع) نجد له تقابلاً نظيراً له فى ديانة العالم القديم والعالم الحديث. فالعالم القديم بما كان يسود فيه من ديانات طبيعية يمثل الجانب الذى ترجح فيه كفة الطبيعة، بينما ديانة العالم الحديث هى المسيحية التى ترجح فيها النزعة المثالية التصورية. ولو أمعنا النظر فى سير التاريخ لنجد قد اجتاز مراحل ثلاثة:

مرحلة الطبيعة التى وصلت إلى عنفوانها فى الشعر اليونانى والديانة اليونانية.

ثم مرحلة الركون إلى القدر التى جاءت ختام للعالم القديم. ثم مرحلة الحكمة الإلهية التى بدأت بالمسيحية، إذ أصبح اللّه موضوعياً لأول مرة فى التاريخ بأن تمثل فى "المسيح" (11).

ومن هنا رأى "شلنج" أن العقل لا يحقق نفسه فى أسمى صوره إلا فى "الفن"، فالبفن يصل العقل إلى ما لا يستطيع تحقيقه بجانبه الذاتي أو جانبه الموضوعى، فالعالم المثالى والعالم الموضوعى هما نتاج لفاعلية واحدة تخلق عن طريق "الفن".

– ولهذا انتهت "نظرية العلم" عند "فشته" بالفلسفة العملية، وانتهت مثالية "شلنج" بفلسفة فى "الفن".

* * * *

مراجع الفصل الثالث من الباب الرابع

(1) د. عبد الرحمن بدوى، المثالية الألمانية (شلنج) ص 181.

انظر أيضاً:

Good freyvesey, Idealism Past and Present, Cambridge university Press, London , New York , 1982 , p. 123.

(2) نقلاً عن د. عبد الرحمن بدوى، المرجع السابق، ص 184.

قارن كذلك :

Schelling, F, W, Jonseph Von, idealism and The endgame of Theory: Three essays, Translated and edited with a critical introduction by Thomas Pfau, State university of New York Press, 1994 .

(3) د. عبد الرحمن بدوى، موسوعة الفلسفة، ص 25 الجزء الثانى.

أنظر أيضا :

James Collins, A History of Modern European Philosophy, p. 596.

(4) نقلاً عن د. عبد الرحمن بدوى، المرجع السابق، ص 26.

أنظر أيضًا :

Jasan M, Wirth, The Conspiracy of life: meditations on schelling and his time , state university of New York Press , 2003 .

(5) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديث، ص 270.

(6) د. عبد الرحمن بدوى، المثالية الألمانية (شلنج) ص 187.

أنظر أيضًا :

James Collins, op. cit., p. 576.

(7) راجع فى ذلك: د. إمام عبد الفتاح، المنهج الجدلى عند هيجل، دار الثقافة للطباعة والنشر، 1981، ص 89.

(8) المرجع السابق، الموضع نفسه.

انظر أيضاً:

Robert B, Pippin, Hegel's Idealism, The Satisfactions of self consciousness, Cambridge University Press, New York, 1989, p. 60.

قارن كذلك :

Andrew Bowie , Schelling and Modern European Philosophy , London , New York , Routledge , 1993 .

(9) د. زكى نجيب محمود، وأحمد أمين، قصة الفلسفة الحديثة، ص 231.

أنظر أيضًا :

Schelling , ideas for a philosophy of Nature as introduction to The Study of This Science , Translated by Errol F, Harris and peter Heath , New York , Cambridge University Press , 1988 .

(10) نقلاً عن د. عبد الرحمن بدوى، المرجع السابق، ص 235.

(11) د. زكى نجيب محمود، وأحمد أمين، قصة الفلسفة الحديثة، ص 234.

قارن كذلك :

Date F, Snow , Schelling and The end of idealism , State university of New York , 1996 .

* * * *